

" درء السيئة بالحسنة "

ومن الأخلاق التي وجهنا إليها القرآن " درء السيئة بالحسنة " وهي خلة المؤمنين الاتقياء ، وصفة المسلمين الأصفياء ، الذين يخشون ربهم بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون .

فيقول الحق سبحانه :- ﴿ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ ﴾ [سورة الرعد: ٢٢] والمعنى : "والذين صبروا على المكاره ابتغاء مرضاة الله وأدوا الصلاة المفروضة في أوقاتها " ان الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً " وانفقوا من أموالهم في سبيل الله ، تلك النفقة التي أوجبها الله عليهم في الخفاء والعلانية ويدفعون الجهل بالحلم ، والأذى بالصبر ، يقول بن عباس . رضی الله عنهما . " يدفعون بالعمل الصالح السيء من الأعمال " والمعنى أنهم يفعلون الحسنات ليدرءوا بها السيئات .
ويقول بن عباس . رضی الله عنهما . " يدفعون بالحسن من الكلام ما يرد عليهم من سوء غيرهم " .

والمراد بالإنفاق سراً وعلانيةً ، سراً يكون بينه وبين ربه سبحانه ، وعلانيةً بحيث يراه الناس ، وذلك ليكون أسوة حسنة لهم ، لا فخراً ورياءً . سواء كان الإنفاق واجب على المسلم مثل الإنفاق على الزوجة ، والولد ، والأقارب ، والفقراء ام مندوباً مثل الإنفاق على الفقراء ، والمعوزين ، والمحتاجين من الأجانب .

ومنه قوله - ﷺ - لسيدنا معاذ بن جبل . رضی الله عنه . " واتبع السيئة الحسنة تمحها ، وخالف الناس بخلق حسن " أولئك لهم عقبى الدار يعنى لهم العاقبة الحسنة المحمودة في الدار الآخرة ، والفوز برضوان الله سبحانه وهو الجنة . يقول الله تعالى :- ﴿ جَنَّاتٌ عَدْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ [سورة الرعد: ٢٣] والمراد جنات إقامة خالدة يدخلها أولئك الأبرار ، ومن كان صالحاً من آبائهم ونسائهم ، وأولادهم ، وذلك للأنس بهم ، وفيهم السرور بهم ، حتى ولولم يكونوا لا يستحقون هذه المنزلة بأعمالهم ، فيرفع الله منازلهم إكراماً لأولئك ، وذلك فضل الله الذي يؤتية من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، والكرم العميم ، ثم إن لهم إكراماً آخر بينه الله سبحانه في قوله تعالى :-

﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٤﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى

الدَّارِ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سورة الرعد: ٢٣: ٢٤] اى والملائكة يدخلون عليهم للتهنئة من كل باب من ابواب الجنة يقولون لهم " سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ " يعنى لقد سلمتم من الجن ونجوتهم من

المحن وذلك بصبركم الجميل " فصبر جميل " في الدنيا ، فلئن كنتم أوديتم في الدنيا فلقد استرحتم في هذا اليوم يوم لقاء الله سبحانه ، والفوز برضوانه ، وتلك بشارة بدوام السلامة فنعمتهم العافية الحميدة وهي عاقبتكم وهي الجنة .

يقول ابن كثير -رحمه الله- يقول الله تعالى مخبراً عمّن اتصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم عقبى الدار ، وهي العافية والنصرة في الدنيا والآخرة يقول سبحانه :-
 ﴿ الَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴾ [سورة الرعد: ٢٠]

وليسوا مثل المنافقين الذين إذا عاهد أحدهم عَدَر ، وإذا خاصم فجر ، وإذا حدث كذب ، وإذا ائتمن خان . الذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل من صلة الأرحام والإحسان إليهم ، وإلى الفقراء ، والمحتاجين ، وبذل المعروف ، ويخشون ربهم فيما يأتون وما يذرون من الأعمال ، ويراقبون الله في ذلك ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة .

لهذا أمرهم بالاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم ، وجميع أحوالهم والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم عن المحارم والمنكر ، واجتراح السيئات واقتراف الآثام ، فامتنعوا عنها ونأوا عن ارتكابها ابتغاء مرضاة الله سبحانه ، وانفقوا من أموالهم على من يجب عليهم الانفاق من الأجانب ، والأقارب من الفقراء والمحاويج ، والمعوزين ، والمساكين ، وأبناء السبيل ، سراً وعلانيةً مع دفعهم القبح بالحسن ، ومقابلة المنكر بالمعروف ، صبراً ، واحتمالاً ، وعفواً ، وصفحاً .

يقول تعالى : ﴿.....أَدْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقُهَا إِلَّا الَّذِينَ هَؤُلَاءِ السَّعْدَاءُ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ ، والذين اتصفوا بهذه الصفات الحميدة الجميلة بأن لهم عقبى الدار ، ثم فسر ذلك بقوله تعالى :- ﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَأَنْزَلْنَاهَا مِنْ أَسْفَلِ السَّمَاءِ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ أَجْرُ الصَّابِرِينَ فِي سَعَادَتِهِمْ ﴾ [سورة فصلت ٣٤: ٣٥]

ولهذا قال الله سبحانه عن هؤلاء السعداء في الدار الآخرة ، والذين اتصفوا بهذه الصفات الحميدة الجميلة بأن لهم عقبى الدار ، ثم فسر ذلك بقوله تعالى :- ﴿ جَنَّاتٍ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَأَنْزَلْنَاهَا مِنْ أَسْفَلِ السَّمَاءِ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ أَجْرُ الصَّابِرِينَ فِي سَعَادَتِهِمْ ﴾ [سورة فصلت ٣٤: ٢٣: ٢٤]
 ومعنى " عدن " العدن هي الإقامة الدائمة .

يعنى جنات إقامة دائمة مستمرة لا تنقطع عنهم ، وهم فيها خالدون . وعن سيدنا " عبد الله بن عمرو" .رضى الله عنهما - قال : " إن في الجنة قصر يقال له عدن حوله البروج والبروج فيه خمسة آلاف باب ، على كل باب خمسة آلاف حيرة لا يدخله إلا نبي ، أو صديق ، أو شهيد . ويقول الضحاک جنات عدن مدينة الجنة ، فيها الرسل ، والأنبياء ، والشهداء وأئمة الهدى ، والناس حولهم بعد ، والجنات حولها ، ويجمع

اللّه بينهم ، وبين أحبابهم فيها من الآباء ، والأهلين ، والأبناء فمن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين ، وذلك لتقر أعينهم بهم ، حتى انه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتنانا من اللّه وإحسانا من غير تنقيص للأعلى عن درجته.

كما قال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلْتَنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [سورة الطور: ٢١]

وقوله سبحانه: ﴿ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴾ [سورة الرعد: ٢٣: ٢٤]

فالملائكة يدخلون عليهم للتهنئة بدخول الجنة ، فعند دخولهم الجنة تفد عليهم الملائكة مهنيين لهم بما حصل لهم من اللّه من التقريب والإنعام ، والإقامة فى دار السلام ، فى جوار الصديقين ، والأتقياء والرسول الكرام .

عن عبد الله عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - انه قال :-

" هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق اللّه ، الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور ، وتنقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء .

فيقول اللّه تعالى لمن يشاء من ملائكته " اتئوهم فحيوهم " فيقول الملائكة نحن سكان سمائك ، وخيرتك من خلقك ، أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء ونسلم عليهم ؟ فيقول اللّه تعالى لملائكته إنهم كانوا عباداً يعبدونى لا يشركون بى شيئاً ، وتسد بهم الثغور ، وتنقى بهم المكاره ، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء ، قال فتأتىهم الملائكة عند ذلك فيدخلون عليهم من كل باب ﴿ سَلَّمَ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾ [سورة الرعد: ٢٤].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى اللّه عنهما - عن النبى - ﷺ - قال " أول ثلة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين الذين تنقى بهم المكاره ، واذا أمروا سمعوا وأطاعوا ، وان كانت لرجل منهم حاجة الى سلطان لم تقض حتى يموت وهى فى صدره ، وان اللّه يدعو يوم القيامة الجنة فتأتى بزخرفها وزينتها فيقول أين عبادى الذين قاتلوا فى سبيلى ، وأوذوا فى سبيلى وجاهدوا فى سبيلى ، ادخلوا الجنة بغير عذاب ، ولا حساب ، وتأتى الملائكة فيسجدون ويقولون ربنا نحن نسبح بحمدك الليل والنهار ، ونقدس لك من هؤلاء الذين آثرتهم علينا ؟

فيقول الرب - عز وجل - هؤلاء عبادى الذين جاهدوا فى سبيلى ، وأوذوا فى سبيلى ، فتدخل عليهم الملائكة من كل باب سلام عليكم فنعم عقبى الدار ، وفى الحديث أن رسول

اللَّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - كان يزور قبور الشهداء في رأس كل حول فيقول لهم: ﴿سَلِّمُوا عَلَيَّ بِمَا صَدَرْتُمْ فَنِعْمَ عَقَبَى الدَّارِ﴾ ﴿٢٤﴾ [سورة الرعد: ٢٤] وفي ذات المعنى يقول الله - عز وجل - ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ [سورة المؤمنون: ٩٦].
والمعنى: ادفع إساءتهم بالصفح والعفو عنهم، وتحمل بمكارم الأخلاق.

يقول ابن كثير - رحمه الله - أرشده إلى الترياق النافع من مخالطة الناس، وهو الإحسان إلى من يسيء إليه ليستجلب خاطره، فتعود عداوته صداقة وبغضه محبة، وهو كما قال في آية أخرى: ﴿.....ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ ﴿٢٤﴾ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿سورة فُصِّلَتْ ٣٥:٣٤﴾

يعنى وما يلهم هذه وتلك الصفة إلا الذين صبروا على أذى الناس فعاملون بالاحسان مع أنهم أسدوا إليهم العمل السيء القبيح، وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم في الدار الآخرة. ﴿.....نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ﴾ ﴿٩٦﴾ [سورة المؤمنون: ٩٦]

يعنى نحن أعلم بحالهم وما يكون منهم من التكذيب، والاستهزاء وسيجازيهم عليه، والله سبحانه أرشدهم إلى الترياق النافع لهم في دنياهم، وفي آخرهم في مخالطتهم للناس، وهو إحسان المسلم لمن يسيء إليه، حتى تعود عداوته صداقة، وعذفه لنا، وبغضه محبة، وكراهيته مودة، يقول الشاعر:

أحسن الى الناس تستعبد قلوبهم
فطالما استعبد الإنسان إحسان

هكذا يمضى القرآن الكريم في الحث على الخلق الفاضل، والذي يأخذ بيد المسلم إلى الطريق القويم، وبذلك يضمن له هذا الخلق حسن الخاتمة وذلك بدخول الجنة، وتحياء الملائكة المقربين في جنات عدن تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها فنعم عقبى الدار^(١)

1 - سورة المؤمنون آية رقم ٩٦ .

- ♦ القرطبي ج ٩ ص ٣١١ .
- ♦ صفوة التفاسير ج ٢ ص ٨١ .
- ♦ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٢ ص ٥١٠ .
- ♦ تفسير القرآن العظيم لابن كثير ج ٢ ص ٢٥٤ .
- ♦ مختصر تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٥٧٣ .
- ♦ البحر المحيط ج ٦ ص ٤٢٠ .
- ♦ تفسير المراعى ج ٦ ص ٥٢ ، وج ٥ ص ٩٣ - ٩٥ .
- ♦ تفسير القرطبي ج ٥ ص ٣٥٣٩ وما بعدها .